أحمد حرزني

بعض المقترحات من أجل البديل

1 ــ لعل سبعينات هذا القرن كانت قاتلة بالنسبة للماركسية ــ كما مورست فعلا في كل مكان وبمختلف التنويعات ــ مما، يفرض علينا القول بالمناسبة : كما كان بالامكان أن تمارس فقط .

فالاتحاد المسمى سوفياتيا فقد قناعه منذ أمد طويل، كاشفا عن حقيقته كنظام قيصري جديد، يمارس الاستغلال البيروقراطي والاضطهاد ــ بما فيه الاضطهاد القومي، البوليسي على كل حال ــ في الداخل، والامبريالية في الخارج ــ بل وما هو تقريبا مجرد استعمار، في حالة كحالة أفغانستان. ولقد احتلت صين ماو لفترة من الزمن مكانه كقطب للثورة العالمية، ألا أنه جاء قزم نجح في رمشة عين في إثبات أنه برغم عظمة التجارب التجديدية التي قادها « الربان العظيم » ــ ذلك الرجل الذي ينبغي ألا ننسى أنه فيما يخصه لم يكن يعتبر نفسه سوى « ناسك وحيد يجوب العالم راجلا تحت مظلة مثقوبة » ــ فإنها (تلك التجارب) لم تكن سوى إيماءات يائسة، ظل نسق الحزب الشيوعي بعدها سليما كما كان تقريبا. وبنفس السهولة تحولت فيتنام من وضعها كأسطع رمز مجسد لنضالات التحرر الوطني الى وضع الغازي الاصفر على صعيد ما كان يعرف بالهند الصينية. أما كوبا فلم تكن أقل سرعة في تحولاتها، أذ سرعان ما انتقلت من مركز لحركة القارات الثلاث الى مرتبة العميل المفضل « للأخ الاكبر » الروسي...

في أوروبا، تشتت أخلص المناضلين، بينما الاحزاب الشيوعية « الكلاسيكية » تتسابق في صيرورتها الاشتراك ـــ ديمقراطية، رغم بعض المقاومات الداخلية، المتجاوزة تاريخيا، والمدفوعة بمصالح أكيدة. ولم يعد المشروع البروليتاري، في « نقائه » الاول، محمولا ألا من طرف « أحزاب مسلحة » مزعومة، تلجأ الى السلاح فعلا... إلى أن يصل اعضاؤها أمام محاكم البورجوازية، فيعلنون لها عادة عن توبتهم...

وأخيرا، في العالم الثالث، يبدو أن الاستراتيجية الوحيدة لزمر مرتعشة أصبحت هي تلك التي أفادت ايما أفادة إنسانا كبراك كرمل، و. التي تتخلص في ... انتظار وصول جيوش بريجنيف (أو أحد خلفائه طبعا، أو أيا من ملازميهما).

باختصار، أنها **إمبراطورية** ــ إمبراطورية لا زالت قيد التشكل، هذا أكيد، ولكنه تشكل متسارع ــ إمبراطورية تعتمد بالأخص على العسكرة، الظاهرة أو المستترة، للمجتمعات التي تستعبدها، وعلى رؤوس جسر ــ لا تعدو كونها رؤوس جسر ــ في المتبقى من العالم ــ، ذلك هو ما انتهت إليه الماركسية.

لا عجب، والحالة هذه، إن صار على الشعوب، وعلى شعوب العالم الثالث بالدرجة الاولى، أن تدافع عن نفسها لا ضد الأمبريالية فحسب، ولكن أيضا، وبنفس القوة ــ إن لم يكن بقوة أكبر ــ ضد الأمبريالية القادمة من الشرق، باعتبارها أمبريالية **صاعدة**.

ولا عجب أيضا إن كانت الشعوب اليوم، وهي تتطلع الى تحررها الاجتماعي، تدير وجهها نحو ايديولوجيات أخرى غير الماركسية، أو تجهد لبلورة ايديولوجيات جديدة انطلاقا من تقاليدها الخاصة. وهذا الأمر هو الذي أكثر من غيره، من إيران الى أمريكا الهنود، مرورا ببولونيا، ينعي لنا وهما طال أمده.

2 ــ لقد ماتت الماركسية، لهذا فإن الأمر لا يتعلق « بالارتداد » عنها بقدر ما يتعلق بمحاولة القيام بتشريحها للاحتراس مستقبلا مما سبّب موتها، بعد اكتشافه، وكذلك للاحتفاظ بالنصيب من الحقيقة الذي لا بد أنها رغم كل شيء تضمنته. ولنؤكد توا أن ذلك النصيب من الحقيقة ليس ذا طبيعة نظرية، وإنما هو سابق على كل نظرية، ومتعال عليها، والمفروض أيضا أنه دائم بعدها. إنه، بكل بساطة، **الرغبة** في الثورة. تلك الرغبة هي التي حتمت على ماركس أن ينتقل من انجلترا الى روسيا عبر ألمانيا. وهذا المسار وحده يكفي للحكم على النظرية (الماركسية) كنظرية. فالذي يعنى بالماركسية هو في الجوهر تأمل في الصناعة أريد به تدعيم **رهان** على هذه الأخيرة : بينما المسار المذكور هو مسار نحو « التصنيعية » الاقل... ولكن لنكن أكثر منهجية.

3 ــ عندما يراد تفسير « تحلل » المجتمعات « الاشتراكية » الحالية، فإن الادانة تنصب عادة على دكتاتورية الحزب، التي يقال أنها حلت (بصفة « لا مشروعة ») محل دكتاتورية الطبقة (العاملة)، تلك الدكتاتورية الطبقية المفروض فيها أنها لا تنفي بالضرورة التعددية السياسية، اللهم إن اضطرت الى ذلك انتقاليا... في نظرنا أن هذه التهمة غير ذات موضوع، لأنها تفترض طبعا إمكانية قيام البروليتاريا كطبقة، في حين أن هذا القيام **غير ممكن**.

لا شك في أن ماركس لمس في البداية تطور الصناعة كما هو في الحقيقة، أي كتهديد لم يسبق له مثيل بسحق الناس، وبتدمير كلية وجدان الشغيلة ذاته على الاخص*. ولكنه فيما

---

* أنظر بهذا الخصوص بعض مقاطع «مخطوطات 1344»

يبدو لم يكن ليسمح لنفسه بأن يظهر أقل « تقدمية » من البورجوازية، ولا بأن يتخلى عن حجة الوفرة المرتقبة، في مواجهة خصم مثل مالتوس. كان عليه، بالتالي، أن يجد للميدالية وجهها الجميل... وقد ظن أنه وجده لما اكتشف حتمية الأزمات الدورية (الى أن ينهار الوحش نهائيا، أو على الأقل الوحش كما كانت « تديره » البورجوازية) ــ هذا من جهة. من جهة ثانية أقنع نفسه « بحتمية » توحد العمال وارتقائهم الى الوعي الطبقي، وذلك بفضل دينامية مختلف الصراعات الطبقية الجارية في المجتمع. ثالثا أقنع ماركس نفسه أيضا بأن الصناعة، على الرغم من علاتها (« العابرة » على كل حال)، تفرض اللجوء الى بعض المناهج (« تغيير العمل، سيولة الوظائف، حركية العامل الكونية »**) التي من شأنها أن تؤدي الى مراجعة قسمة العمل الموروثة (المزعوم أنها موروثة فقط) عن المانوفاكتورة. ومراجعة قسمة العمل تلك تعني إمكانية بروز العامل المشارك. هكذا «ولدت» البروليتاريا. وهكذا منحت مسبقا لاشروط انتصارها السياسي فحسب، وإنما أيضا شروط استيلائها على قوى المجتمع الانتاجية، والتحقق الكامل لذاتها بالتالي. وحتى لا يقال أنها طبقة ككل الطبقات، فمعروف أنها منحت كذلك القدرة على إعادة خلق الانسانية كلها مجددا. بعد ذلك، أصبح بالامكان قبول الصناعة جملة، بدون أدنى تبكيت صغير. وذلك ما سيفعله فعلا الخلف، رغم أنه سيشهد عدم قيام البروليتاريا، بل وسيعمل، لمزيد من الاطمئنان من أجل عدم قيامها...

أجل، إن البروليتاريا لم تقم، ولا تستطيع أن تقوم. فكلما تقدمت الصناعة، كلما احتدت تجزئة العامل الجماعي، بين جمهور متزايد من غير المختصين، وأقلية أقرب الى فئة التقنيين والمهندسين وغيرهم من « الأخصائيين » المحظوظة. وكقاعدة تكاد تكون عامة، فإن هذه الأقلية هي التي تنتهي، بشكل شبه طبيعي، الى تأمين « تمثيل » المجموع لنفسها. والحال أنها، وبشكل طبيعي، اشتراك ــ ديمقراطية بالمعنى المتعارف علية اليوم. ومما يزيدها صلافة أن أجورها لا تفتأ تتصاعد بفضل حصولها على قسم من أرباح الاستعمار. إلا أنه لابد من الاعتراف لها بأنها بقدر ما يتوسع الاستعمار ويتعمق، وأيضا بقدر ما ترتفع الانتاجية الصناعية في المراكز الاستعمارية ذاتها، فإنها تبدي دوما اهتماما بتعميم « مكاسبها » على مجموع « موكليها ». واليوم وقد تم انقسام العالم الى عالمين متباينين ــ واحد « متقدم » والآخر « متخلف » ــ فإنه يمكننا القول أنها نجحت تماما في مسعاها : فمجموع « الطبقة العاملة » في المراكز الاستعمارية قد بات اشتراك ــ ديمقراطيا.

صحيح أنه تشكلت أحزاب «طليعية»، لا منازعة في البطولية التي واكبت نشأتها. ولكن هذه النشأة ذاتها كانت تكشف عما كان يراد إخفاؤه، ألا وهو ولادة البروليتاريا ميتة. فهل كان للبروليتاريا أن تنبعث بمجرد استيلاء الاحزاب « الطليعة » على السلطة وبنائها

** رأس المال، القسم الرابع، الفصل 15، من الكتاب الاول.

« للقواعد المادية للاشتراكية » ؟ ــ للجواب على هذا السؤال، يكفي ألقاء نظرة على واقع الحياة العمالية في البلاد المسماة ببلاد « الاشتراكية المتحققة فعلا ». إن هذه البلاد ما تزال ــ في أحسن الاحوال ــ في مرحلة الاشتراك ــ ديمقراطية الاصطفائية (التعامل المؤدى عنه بين قاعدة الحزب الشيوعي وحدها وقمته التي لا تتميز عن مجموع البورجوازية البيروقراطية). ولكن هناك ما يبعث على « التفاؤل » إذا كان صحيحا أن نفس الاسباب تؤدي الى نفس النتائج. فلربما أسفرت « القواعد المادية للاشتراكية » المزعومة عن اشتراك ــ ديمقراطية أكثر نسقية. على أن تتوسع الامبراطورية وتتدعم، ويتم تجاوز التأخر التكنولوجي. أما شرط ثالث ــ تكييف ماض لازال قريبا ــ، فهو نسبيا أعسر تحقيقا...

4 ــ إنها، إذن، الاشتراك ــ ديمقراطية ــ اشتراك ــ ديمقراطية غير متكافئة بالضرورة ــ، لا « ثورة بروليتارية » ما، ذلك التي يتمخض عنه التطور الصناعي. بهذا الصدد وجب تحديد ما معنى الاشتراك ــ ديمقراطية. إنها تراض اجتماعي حقا، قوامه توزيع « عادل ». ولكن هذا التوزيع « العادل » مشروط بخضوع يمكن أن يقال أنه نهائي لعلاقات الانتاج الرأسمالية ولسيادة الآلة، وبالتالي للبيروقراطية التقنوقراطية المكلفة بتسيير هاته وتلك. هكذا تقوم الاشتراك ــ ديموقراطية على « نسيان »... الكمونة، وكرونشاط، وشنغاي... وكذا على جوع الآخر، المعدود بالملايين، وعلى العنصرية. بكلمة واحدة على الجبن. على إحلال أكثر حاجات الانسان انحطاطا محل كل مثال كيفما كان متواضعا. ويدعون بعد هذا تعقيدنا ! إن أكثرنا بلادة وحدهم، نحن أبناء العالم الثالث، هم اللذين يمكنهم بعد المضي في الاغترار بأكاذيب مثل « الثقافة العالية » و« التناوب في الحكم »، الخ...

5 ــ لا جدوى بعد الآن من التوقف عند الجوانب السياسية أو الفلسفية « الخالصة » لمختلف التجارب الماركسية. لقد أدت على الخصوص، وأكثر من مرة، المراهنة على إمكانية ماركسية أكثر « صرامة »، الى الطريق المسدود. لقد توافق بروز الماركسية، تاريخيا، كنسق، مع نهاية الاممية الاولى وتشكل أول الاحزاب « الطليعة » في حين أن الشيوعية لم تكن تعرّف نفسها قبلا، وبنوع من الشموخ، إلا بكونها « التعبير العام عن حركة اجتماعية تدور أمام أعيننا ». ومنذ ذلك الوقت، فبقدر ما صغر حجم « الطلائع »، بقدرما اتخذ تفقه أعضائها طابعا كاريكاتوريا. تفقههم وجنون العظمة لديهم : ذلك أن ادعاء العلمية قليلا ما يخفي بالكامل شعار التحكم في الواقع، في ما هو حي، بغية قتله في النهاية. إن هذا ما اشتبه فيه ماركس، لاشك. لهذا كان يتضايق من إلصاق نعت « العلمية » باشتراكيته، ولم يكن يتحمله إلا من باب تحدي انسان كباكونين. أما كتّاب معاصرون لنا فقد فضلوا أن يكونوا أكثر قطعية منه. وبما أنهم لم يكونوا يتوفرون على عذر، أو متنفس ارتباطهم بطلائع، فإن مرضية « علمويتهم » لم تقدمهم سوى الى مآس شخصية مؤسفة...

بدون التغافل عن أخطاء، وبالاحرى عن جرائم الاشخاص، لا مناص اليوم من التصويب نحو جذر الداء، ألا وهو تقديس الصناعة. فمن هذا التقديس ماتت الماركسية كمشروع ثورة. لقد بات واضحا أنه لا يمكن مصارعة البورجوازية في ميدانها، الذي هو هنا مزدرعها ورحمها. كل ما يمكن في هذه الحالة هو، في « أحسن الاحوال »... الانتهاء الى اعطائها وجها مجددا، وذلك عبر الامتزاج معها...

المقصود، إذن، بمعنى من المعاني، هو إعطاء الحق ــ وإن متأخراً ــ للعمال الاوائل : نعم، لقد كان رد فعلهم صحيحا، لقد كان يجب تكسير الآلات.

بيأس أقل، إذا كان لا يزال ضروريا، رغم كل شيء، التنازع حول ماركس (حول « تملّكه »)، فالمطلوب هو أن نتبعه الى نهاية مساره : في آخر حياته، وبعد أربعين سنة من النضال قضاها وهو يرصد أحشاء المجتمع الصناعي ويحاول أن يساعد في ولادة البروليتاريا ــ لاجئا أحيانا من أجل ذلك الى وسائل تخرج عن « الشرعية » التي سطّرها هو نفسه ــ، بعد كل هذا الزمان، أعلن ماركس عمليا فشله، وحينذاك ماذا فعل ؟ ــ لقد توجه بكل آماله نحو بلد كان بدون بروليتاريا، لأنه كان بدون صناعة واسعة النطاق، توجه نحو روسيا. فعلينا اليوم أن نمدّد حركته تلك، علما بأن روسيا اليوم هي العالم الثالث الفسيح.

6 ــ إن العالم الثالث، على كل حال، «مخسور» نهائيا، بالنسبة للصناعة، ولن يستطيع أبدا «أي نظام اقتصادي عالمي جديد» أن يدمج احتياطاته البشرية الهائلة في أنشطة إنتاج «عصرية». من هنا فإن خياره الوحيد هو بين تحمل إبادات بطيئة بهذا القدر أو ذاك، أو اكتشاف حلول ملائمة لمشاكله، باللجوء إلى عبقرية شعوبه وحدها. ذلك أن هذه المشاكل هي من الجدة بحيث أن كل «خبراء» العالم ــ كيفما كانت نياتهم خالصته ــ ناهيك عن الحكومات المحلية، أعجز عن مجرد استيعابها.

وبديهي أن الاختيار الثاني هو الذي يفرض نفسه. ومن غير المستبعد أن يكون حاملا في طياته بديلا صالحا للعالم أجمع، وفي هذه الحالة فلن تكون أول مرة يتم فيها انعاش الحضارة على أيدي «برابرة». كما لن تكون المرة الاولى التي ييسّر فيها طرف ثانوي في تناقض يعتبر ثانويا تجاوز كافة التناقضات الاخرى.

7 ــ إن أولى المستعجلات تتمثل في ضرورة توفير أدوات عمل لأذرع يتهددها التلف، لكن أية أدوات عمل ؟ ــ بالضبط ــ أدوات عمل ليس من شأنها أن تخلق البطالة، ولكن من شأنها على عكس ذلك أن تسمح بتشغيل الجميع. معناه أنها ستكون أدوات «على قياس البشر». ربما ليس على قياس الافراد بالضرورة، ولكن في جميع الاحوال على قياس التجمعات البشرية القاعدية، قرى أكانت أم أحياء الخ... وبالتالي فستكون **قابلة للمراقبة** من طرف هاته التجمعات البشرية القاعدية، وهذا هو بيت القصيد، إذ التجربة بينت بما فيه

الكفاية أنه من غير المعقول ترقب تملك العمال لوسائل الانتاج مادامت وسائل الانتاج هذه ذاتها غير قابلة لذلك التملك. هكذا وبسخرية التاريخ ــ ولكنها سخرية معتادة ! ــ قد (لا) تتحقق **ماهية الاشتراكية** ... (إلا) في خضم النضال من أجل مجرد **البقاء** !...

أدوات عمل كالتي نعني (لنسمها بعد إيفان إلتش **مضيافية***) ممكن توفيرها بالطبع. إنها، أولا، العديد من الادوات (العصرية) الموجودة منذ الآن، ولكن التي تحكم عليها عسفا بالتقادم المبكر معايير الانتاجية ووتيرة التجديد التكنولوجي السائدة. إنها، ثانيا، أدوات ــ وتقنيات إنتاج، ومناهج عمل، الخ... «تقليدية». وهذه، طبعا، مهددة أكثر من الاولى، بل إنها عموما في طريق الاندثار. لماذا لا ينقذ هذا التراث الهام ويعاد اليه الاعتبار ؟ لماذا لا يمنح المسلك التكنولوجي الخاص لمختلف مجتمعات العالم الثالث، المطابق لخصوصيات بيئاتها، لماذا لا يمنح فرصة للاستمرار ؟ إن ذلك لن يمنع بتاتا ــ في نفس الوقت ــ من تبني بعض نتائج البحث العلمي «الما بعد صناعي» الاكثر تقدما. المهم هو الا يُنسى أبدا مقياس القابلية للتملك من طرف المستخدمين، عند اختيار الادوات التي نحتاجها. ومن هذه الزاوية، فهل من داع للتأكيد على أننا لسنا ضد **كل** صناعة **وكل** تصنيع ؟

بالمقابل، نعتقد أنه لا مناص من التوقف عن الانتاج لاجل الاخرين، وبحسب أنماطهم الاستهلاكية.. فالكثير من الانتاجات ينبغي أن يتم التخلي عنها، أو على الاقل أن يُحد من حجمها. والكثير من الاساليب (أساليب البناء مثلا... أو العيش، بكل بساطة) ينبغي أن تتغير. بالمقابل فإن الناس لن يعرفوا بعد طعما للجوع، وسيلغون الخصاص، ويفارقون الذل. وسيتاح لهم أيضا أن يعيدوا رسم محيطهم، ويضفوا الجمال على حياتهم، بحسب ما توحيه لهم حواسهم، عساهم ينجزون نهضتهم..

8 ــ «السيطرة» على الطبيعة، و «غزوها» والتعامل معها على أنها «عدوة»، كلها أشياء لا شأن لنا بها. يكفينا أن نضمن لانفسنا حماية ناجعة من نزواتها، أما ماهو غير ذلك... فالاجدر بنا بصدده هو أن نفطن إلى أن تعاليم... «الهنود الحمر» مثلا، أثمن بالنسبة لنا من خطابات أبناء ديكارت، سواء أكانوا من اليمين أم من اليسار. إن الثقافات الشعبية، بصفة عامة، تستدعي اهتمامنا، إلا أن علينا أن نبحث فيها عما هو أحسن من مجرد حجج دون ــ وطنية : عن عناصر فلسفة بيئوية جديدة، عن نظرة الى الطبيعة جديدة، عن معنى جديد نعطيه لعيشنا جماعة.

9 ــ بالذات، إن الذي يهمنا هو تغيير العلاقات الاجتماعية في اتجاه الفرح، الشيء الذي يستلزم لا وجود جماعات متحررة من الاستغلال ومن ربقة الدولة ــ ومتوفرة إذن على أدوات عمل مضيافية، هذا مالن نمل من الالحاح عليه ــ فحسب، وإنما يستلزم كذلك وجود

* Ivan Ilitch «La convivialité» éd. du Seuil, Coll-Points, 1974

أفراد متحررين وكفى ! وهذا يطرح بدوره أساسا، وبالبداهة، من خلال مسألة الجنس، مسألة المرأة على نحو خاص. إن الجميع تقريبا اليوم يقر بضرورة تحرر المرأة. بل إن هذا التحرر يكاد يتحقق فعلا هنا وهناك، حيثما هبت رياح «الحداثة» إلا أن الذي يهمنا التأكيد عليه هنا هو أن الحركة الحالية لتحرر المرأة تساهم أكثر من اللازم في عملية تذرية (atomisation) المجتمعات، تلك العملية التي تشجعها النزعة التقنوقراطية الزاحفة ـــ والمنتصرة، حتى داخل الاسر، عفوا، مقرات السكنى. ما أدعاه للاشتباه من تحرر، والحالة هذه ! إن التحدي الحقيقي يتطلب من النساء أن يحققن تحررهن في إطار الجماعات المنشود تكوينها أو إعادتها للحياة ! إن الامر يتعلق بالنسبة للنساء بضرورة محو آثار هزيمتهن القديمة فوق ذات الميدان الذي وقعت فيه تلك الهزيمة ـــ فهن لسن بالضبط بمثابة بروليتاريا منزلية. وذلك يعني : فرض اقتسام المهمات، بدل القبول بتفويضها الى آلات، كما يعني : تضامنا حقيقيا بين النساء. ويعني أخيرا، بعد فترة من التوتر لعله لا مناص منها، اهتمام النساء... بطمأنة الرجال، لان شكوك هؤلاء الحميمية لم تكن قط، على ما يظهر، غريبة عن ممارساتهم البادية، ولان الحاجة الى العلم ذاتها، بما قد تضمره من إجرام، ربما وُجد جذرها فيما أطلق عليه «لغز المرأة». فلتكشف المرأة عن نفسها إذن ! لتعبر عن نفسها، لتتكلم ! لتنتصب كذات فاعلة في التاريخ ؟

10 ـــ ثمة تغييرات إجتماعية أخرى يمكن مباشرتها بدون تأخير، أي بدون أن يكون «شرط» السلطة السياسية قد تحقق قبلا، ولا بالاحرى شرط تعميم أدوات العمل المضيافية. ويمكن البدء... بنشر مثل تلك الادوات جزئيا وعلى نطاق محلي. يمكن مثلا تأسيس أوراش لفائدة ومع العاطلين (الذين للتو لن يعودوا كذلك) وهذا لن يتطلب تكاليف باهظة. كذلك يبدو أن التقاليد والمهارات الجماعية للفلاحين لا تحتاج سوى الى إتاحة الفرصة لها للتدليل على فعاليتها. التعاونيات العمالية تنشد من يشجعها، ناهيك عن مجرد تعاونيات المستهلكين (الفقراء)، في زمان التضخم الجامح هذا...

من بين الميادين الاخرى المفتوحة لمبادرة مناضلي التغيير الاجتماعي : المدرسة (تخيل وتجريب مدرسة أخرى، مغايرة) ؛ الطب* الخ .. الخ...

إننا لانفهم لماذا ظلت، في بلداننا، هذه الميادين المختلفة متجاهَلَة الى حد الان ؟ ولكن الجواب بسيط في الواقع : إنه يتلخص في الانشداد الى السلطة. مع أن أية قوة سياسية لن تحرز أبدا على كامل المصداقية مالم تعط الدليل على أنها مختلفة...

11 ـــ ان قوى المستقبل، تبعاً للترتيب الأبجدي إن شئنا، هي كما يلي : الجماهير المبلترة في المدن والبوادي، الفلاحون، الشباب، النساء، العمال. اخترنا هذا الترتيب لانه لم تعد

. أنظر المثال الذي وصفه عزيز حسبي بالنسبة للمغرب : «من أجل أن نبدع، دعونا نتصرف» مقال نشرته لاماليف (الناطقة بالفرنسية) عدد 26 (يونيو 1981).

* هذا الميدان مقتحم أكثر من غيره، الشيء الذي يؤكد ربما أن المسألة فعلا هي مسألة بقاء...

هناك طبقة منقذة. مما يترتب عنه أنه ولن تكون هناك «طليعة» تزعم «تمثيلها». ان انبل دور يمكن بعدُ المثقفين الثوريين ان يطمحوا اليه هو المساهمة في ابراز حركات جماهيرية مستقلة وديمقراطية للوجود، وفي تيسير التواصل فيما بينها.

12 ــ للعالم الثالث حلفاء، منهم الواعون ومنهم الضمنيون، انهم، في الغرب، اكثر من اي حزب : «الحركات الاجتماعية الجديدة» (بيئيون، اقليميون، نساء...). وفي الشرق : كل «منشق» لا يحد افقه منظور الاشتراك ــ ديمقراطية الغربية.

13 ــ بقي لنا ان نحدد موقفنا تجاه «الموجة الدينية» (العالمية) الحالية. ان ذلك الموقف، بقدر ما ان خِطَابَنَا نفسه يتضمن دعوة الى اطلاق البعد **الاخلاقي** للكفاح من اجل التغيير، وبقدر ما ان الاخلاق والدين يحافظان فيما يبدو، دون غيرهما مع الأسف، على علاقات ممتازة ــ ان ذلك الموقف اذن، لهذه الاسباب، لا يمكن ان يكون الا متفتحا. وقد كان ليكون كذلك سلفا، بغض النظر عن بعض الاخطار «التخديرية» المعروفة ــ والمعروفة اكثر من اللازم ربما ــ ، ولو لسبب آخر وحيد، ألا وهو كون الاديان تتمسك «بالسذاجة» التي تجعلها تعلن لن «كل البشر اخوة» ــ الشيء الذي معناه انه من **الاجرام** «اكل الانسان للحم اخيه الانيسان». انها سذاجة ثمينة في وقت نُصِرُّ فيه على ان العدو هو الاشتراك ــ ديمقراطية وعلى ان هذه الاخيرة تقوم اولا وأخيرا على الأنانية البهيمية للافراد.

ولكن بالاضافة الى كل هذا، فان موقفنا من الاديان ايجابي لانها تتموقع اليوم في خط النضال الامامي ضد الامبرياليات. ولقد فرضت نفسها بعد كطرف فاعل في البديل الآخذ في التشكل على الصعيد العالمي. ولا غرابة، فمن الاكيد انها حملت دوما في طياتها مضمونا جماعتيا ــ بل و «بيئويا» الى حد ما، فيمايخص الاسلام ــ نى البديل المذكور يتبناه اليوم.

موقف ايجابي بكل وضوح اذن، ولكن في نفس الوقت، ولهذا السبب ذاته، **فهو** موقف لابد ان يكون **متصلباً**. اننا نذهب ابعد من مجرد «الاحترام [الزائف في اغلب الاحيان على كل حال] للمعتقدات الشعبية»، وسوف نحترس دوما من الديماغوجية القاضية بمحاولة «احتواء» الدين على حساب الخصم «الفيودالي»، والتي عادة ما تؤدي بعشاقها الى ان يتم احتواؤهم من طرف هذا الخصم ولفائدة فهمه الخاص للدين، ولكننا، وبكلمة واحدة، ننادي بضرورة فتح الحوار من أجل مناقشة اصلاحات أساسية في الدين.

لنأخذ مثالا الاسلام . انه لا يمكن نكران ان كل دين **يساهم بصفته دينا**، وخاصة من خلال مميزات الصلة التي يعلنها بين الله والكائن البشري. وكذا من خلال الوضع الذي يحدده لهذا الأخير بازاء الطبيعة ــ يساهم اذن في تحديد صيرورة المجتمعات وصيرورة العلاقات الاجتماعية القائمة داخلها. وهكذا فاذا كان قد تم دوما، في المجتمعات ذات التراص اليهودي ــ المسيحي، **الاعتراف** بقيمة ما للفرد، فانما يفسر ذلك **ايضا** بكون يعقوب حسب

التوراة، تعارك مع الله ذاته (!)، بل ولم ينهزم في تلك المعركة* (!!). كما يُقِرُّ بكون عيسى من جهته اعتبر ويعتبر ابن الله، او حتى الله. في نفس السياق يمكن القول ان نفس المجتمعات لم تكن لتجرؤ على مجابهة الطبيعة كما جابهتها فعلا لو ان عيسى، مرة اخرى وعلى سبيل المثال، لم يقل يوما للريح التي كانت ترعب اناسا : «اسكتي ! ابكمي!» — ويحكى ان الريح همدت ...**

بالمقابل، في المجتمعات الاسلامية، نلاحظ ان نصيب الشعوب ظل هو البؤس والخصاص، ونصيب الفرد ظل الاحتقار. مع ان الاسلام، بدون منازع هو دين «خلافة البشر على الارض» ! ودين تحليل كل الطيبات، شريطة ان يتمتع بها بلا افراط ! انه لمن الصعب ألّا نرى سر هذه المفارقة في واقع ان الله لا يفوض قط سلطته على الطبيعة ***. وفي كونه ايضا يسمو بعيدا، بعيدا جدا، مما يترتب عنه ان العلاقات البشرية (الافقية) تكاد تمسي بالغة التفاهة.

والاخطر من كل هذا ان الشيطان يتدخل في الامر. لقد سمح له الله، قصد اختبار الناس، ان يجد لصدهم عن الصواب، اي، في نهاية التحليل، لجعلهم ينسفون ما يكون قد تبقى من مشروع «الخلافة على الأرض» — وهو مشروع لا نحتاج ان نؤكد على طابعه الجماعي — وبديهي ان الشيطان ربح رهانه «على طول». لقد كان محتما ان يربحه، طالما إن مجرد اقتحامه للخشبة كان من شأنه ان يجرد المسلمين من شعورهم بالمسؤولية — مسؤولية كل واحد منهم، ومسؤولية الآخرين. وكأننا بالمسلم صار لسان حاله يقول : لست مسؤولا عن انحطاطي الشخصي، وليس الظلمة بمسؤولين عن الظلم الذي يمارسونه. والحالة هذه فقد كان للاستبداد والفضيحة ان يستقرا في بلاد المسلمين، وسط مناخ من الأسى والقنوط، ولعلهما يستمران لآمادٍ اخرى...

سجلت اخيرا الملاحظة التالية :

«لا الح على المسلمين اليوم من الرجاء من الله ان يأذن لهم بطرد الشيطان الى الابد. ان الله لن يمنع هذا، ولكن « الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الآية)»

«على المسلمين اذن ان يعرضوا الشيطان لنفس العملية التي كان عيسى يعرض لها الجن : كان يقول لهم بكل بساطة «اخرج !» ، فيخرجونه *»».

طرد الشيطان جذريا من مجالهم الذهني، والحصول على بعض الاقتراب من طرف الله

* سفر التكوين، 33 — 31
** إنجيل مرقص، 4 — 39.
*** لكي نبقى عند مثال الريح، أنظر القرآن، 30 — 47 و 30 — 50.
* مرقص 5 — 8

— **بعض** الاقتراب فقط، لان اكثره قد يولد، في بقع اخرى من الارض، غرورا وجسارة — ، هل هذا كثير على المسلمين ؟ هل من شيء فيه ينافي الدين ؟

ان ما سبق ليس سوى محاولة اولى لاعطاء مثال عن مقاربة جديدة للمسألة الدينية. ونعتقد انه ان وجد له الاثر المطلوب، فان بعض القضايا القائم حولها خلاف —(قضية حرية الضمير، قضية المرأة، قضية الثقافات الشعبية...) لن تعود ذات شأن كبير.

14 — تحدثنا أعلاه عن **دور** المثقفية الثوريين. فماذا عن **وضعهم كمثقفين** ؟ — اقل ما يقال انهم لم يعودوا يملكون حقيقة شاملة ونهائية — على الاقل ... اجمالا — يلقنونها للجمهور الفقير الى علمهم ! عليهم من الآن فصاعدا ان يتعودوا على التعايش مع الارتيابات — وان يكتفوا — ولكن اهذا قليل ؟ — بحقائق متفرقة، ومتفاوتة القدرة على الصمود للزمان، الاهم من كل ذلك، حقائق قد ينتجها **غيرهم**. ربما اتى، لاحقا، صيف يقين متألق ؟ في انتظار ذلك، يبقى يقين واحد مطلقا : «المطروح هو تغيير العالم».

احمد حرزني

ابريل 82